نادر محفوظه برائے مجلس تحقیقات ونشریات اسلام
یہ نسخہ مجلس سے باہر نہیں جا سکتا

ثورة في التفكير

ابو الحسن علي الحسني الندوي

بسم الله الرحمن الرحيم

ثورة فى التفكير

إننا — معشر المسلمين — فى حاجة إلى ثورة ، ثورة فى التفكير ،

منذ قرون طويلة بدأنا ننظر إلى أنفسنا كمجموعة بشرية موزعة فى العالم منتشرة فى البلاد ، ذات قوميات مختلفة و لغات متنوعة و ثقافات محلية ، محاطة بظروف و أجواء خاصة . و « إمكانيات » محدودة ، تجمع بين فروعها المختلفة و أسرها المتشتتة « وحدتان » اثنتان لا ثالثة لهما ، « العقيدة » والخضوع للغرب ، والانحصار عليه فى المعيشة والسياسة .

www.abulhasanalinadwi.org

و منذ مدة طويلة بدأنا نزن أنفسنا و قيمتنا و مكانتنا في خارطة العالم بهذه الطاقات ، والامكانيات ، و بما نملكه من الوسائل ، والمواد الخام ، و حواصل البلاد و منتجاتها ، و عدد النفوس ، والقوة الحربية ، فنرى كفتنا راجحة في إقليم ، طائشة في آخر ، راجحة في حين ، طائشة في حين آخر .

و منذ مدة طويلة آمنا بسيادة الغرب و قيادته و أنه أمر مقرر و واقع ليس منه مفر ، و آمنا بأنه وضع لا يقبل التحول و لا التطور ، و تجدد المثل القديم و أصبح عقيدة شائعة ، « إذا قيل لك أن التتر انهزموا فلا تصدق » . (١)

و أصبحنا لا نفكر في معارضة الغرب و مناقشة سيادته و جدارته للسيادة ، و إذا فكرنا في ذلك — على حين غفلة من العلم والدراسة والكياسة — استعرضنا طاقاتنا و وسائلنا والقوة الحربية في بلادنا و سهمنا من المخترعات

(١) كان ذلك الجملة المأثورة الشائعة في المجتمع الاسلامي في القرن السابع عند غزو التتار للعالم الاسلامي و اخضاعه من أقصاه إلى أقصاه .

الحربية والطاقات الذرية فاستولى علينا اليأس والتشاؤم ، و آمنا بأننا لم نخلق إلا للخضوع والخنوع ، و لنعيش على هامش الحياة ، و عيالا على الغرب مرتبطين معقودي النواصي بأحد المعسكرين المتنافسين .

هكذا يفكر العرب ، و هكذا يفكر المسلمون في باكستان ، و في اندونيسيا ، و في تركيا ،

و هكذا يفكر الناس في اليابان ، و في الصين ، و في الهند ، و في سيام ، و في بورما ،

هذا هو التفكير « السليم » . و هذا هو المنطق « السديد » — كما يسميه الناس — و هذا هو الاستنتاج العلمي المبني على الدراسة والايمان بقوة الأسباب و طبيعة الأشياء .

و لكن هناك جماعة لا تقبل هذا التفكير ، و لا تؤمن بهذا المنطق ، بل تثور على هذا المنهج الفكري ، ثورة قوية عارمة ، إن لها منهجاً — في العمل — مختصاً بها ، و إلى هذا المنهج يرجع الفضل في أفضل الثورات و

www.abulhasanalinadwi.org

أصلحها و أقواها فى التاريخ و فى تغير الأوضاع فى العالم تغيراً مدهشاً و فى سعادة البشرية بعد الشقاء الطويل و صلاح المجتمع البشرى بعد الفساد الشامل .

و لا أمل للأمم الضعيفة إلا فى هذا المنهج . و لا مستقبل للأمم — التى تؤمن بالمبادئ و تحتضن الدعوات — إلا فى هذا المنهج .

و لنفهم هذا المنهج و قوته و فضله و نتائجه الباهرة للعقول نرجع قليلا إلى الماضى و نستوحى « الصحف الصادقة » .

يولد موسى فى مصر فى بيئة قاتمة خانقة قد انطبقت على بنى إسرائيل كل الانطباق و سدت فى وجوههم المنافذ والأبواب ، حاضر شقى و مستقبل مظلم ، قلة عدد ، و فقر وسائل ، و ذلة نفوس ، عدو قاهر ، و سخرة ظالمة ، لا قوة تدافع و لا دولة تحمى ، أمة مصيرها معلوم محتوم قد خلقت للشقاء والفناء .

و يولد موسى و ولادته و حياته كلها تحد لفلسفة

الأسباب و منطق الأشياء ، أراد فرعون أن لا يولد فولد ، و أراد أن لا يعيش فعاش ، يعيش فى صندوق خشبى مسدود ، و فى ماء النيل الفائض ، و ينشأ فى حضانة العدو و رعاية القاتل ، و يجد به الطلب القوى الساهر ، فيفلت و ينجو و يأوى إلى ظل شجرة كئيباً غريباً فيجد الضيافة الكريمة والزواج الحبيب ، و يرجع بأهله فيلفه الليل الظالم والطريق الموحش ، و تتمخض زوجه فيطلب لها ناراً تصطلى بها فيجد نوراً يسعد به بنو إسرائيل و يهتدى به العالم ، يطلب النجدة والمدد لامرأة واحدة فيجد النجدة والمدد للانسانية كلها و يكرم بالنبوة والرسالة .

و يدخل على فرعون فى أبهته و سلطانه ، و فى ملائه و أعوانه ، و هو المطلوب بالأمس قد تحققت عليه الجناية و توجهت إليه الدعوى ، و فى لسانه حبسة و فى موقفه ضعف ، فيقهر فرعون و ملاءه بدعوته و إيمانه و حجته و بيانه ، و يلجأ فرعون إلى سحرة مصر ليقهر بفنهم معجزة موسى التى ظنها فناً و سحراً ، فاذا بالسحرة

www.abulhasanalinadwi.org

خاضعون خاشعون يقولون « آمنا برب العالمين رب موسى و هارون » .

و يؤمر بالخروج ببنى إسرائيل والاسراء فى الليل من أرض الظلم إلى أرض النجاة و يتبعه فرعون بجنوده ، و يصبح موسى والبحر أمامه والعدو من ورائه ، و يخوض البحر فينفلق و يكون كل فرق كالطود العظيم ، و يعبر موسى و قومه و يتبعهم فرعون بجنوده فيلتهمهم البحر الهائج .

و هكذا يهلك فرعون و قومه الأقوياء الأغنياء ، و يملك بنو إسرائيل الضعفاء الفقراء « و أورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض و مغاربها التى باركنا فيها و تمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا و دمرنا ما كان يصنع فرعون و قومه و ما كانوا يعرشون » (١)

ما هى القوة التى قهر بها موسى أعظم قوة فى عصره

(١) الأعراف ١٣٧

و مصره ، و ما سر انتصار بنى إسرائيل على أعدائهم ، و ما سلاحهم الذى واجهوا به العدو القاهر الكاسر و أخضعوا به المحيط الخانق الثائر ؟ ،

إقرأ قصة موسى — فى القرآن — من جديد ، تر أن السلاح الذى واجه به موسى فرعون و قومه وانتصر به بنو إسرائيل و تبوؤا الامامة والزعامة فى مصر و حولها هو « الايمان » و « الطاعة » و « الدعوة إلى الله » و يتجلى هذا الايمان و هذه الطاعة والدعوة فى ثنايا القصة و مطاويها ، و قد تجلى هذا الايمان النبوى فى دعوة فرعون و قومه و به تغلب موسى على حجاج فرعون و دهائه ، هو يريد أن يشغله عن موضوعه و يثير عليه الملأ و هو ثابت على دعوته ثابت فى إيمانه لا يتزعزع و لا يتزلزل ، و لا يتحول و لا يتغير ، قال فرعون « و ما رب العالمين ٭ قال رب السموات والأرض و ما بينهما إن كنتم موقنين ٭ قال لمن حوله أ لا تستمعون ٭ قال ربكم و رب آبائكم الأولين ٭ قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ٭

www.abulhasanalinadwi.org

قال رب المشرق والمغرب و ما بينهما إن كنتم تعقلون » (١)

و يسأله فرعون عن الأجيال التى مضت و هو موضوع شائك و سؤال محرج ، و لكن موسى يتغلب على دقة الموقف بإيمانه الراسخ و حكمته النبوية فيقول « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى و لا ينسى » (٢) و يفيض فى الحديث عن الإله الواحد ــ الذى يفر منه فرعون ــ فيقول « الذى جعل لكم الأرض مهداً و سلك لكم فيها سبلا و أنزل من السماء ماءاً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى » (٣)

و يتجلى هذا الإيمان فى أبرز مظاهره لما رأى موسى أمامه البحر المائج ، و من ورائه العدو الهائج فلا متقدم و لا متأخر ، و هو و قومه بين طبقتى الرحى ، و يناديه بنو إسرائيل فى جزع و فى فزع « قال أصحاب موسى إنا لمدركون » (٤) و لكنه ثابت الجأش قوى الإيمان يعرف

(١) الشعراء ٢٣ - ٢٨ (٢) طه ٥٢ (٣) طه ٥٣ (٤) الشعراء ٦١

أن الله ناصر عبده و منجز وعده يقول فى صراحة و ثقة « كلا إن معى ربى سيهدين » (١)

و يعيش بنو إسرائيل فى مصر حياة ذل و شقاء و بؤس و فقر ، يعانون أفظع أنواع الظلم والاضطهاد و أقسى أساليب الحكم والاستبداد ، فيؤمرون بالإنابة إلى الله و تقوية الإيمان و تحسين الصلة بالله ليستحقوا نصره و يوجدوا فى أنفسهم صلاحية الوراثة والخلافة فى الأرض « و أوحينا إلى موسى و أخيه أن تبوأا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة و أقيموا الصلاة و بشر المؤمنين (٢)

و لا طاعة أعظم من طاعة موسى و انقياده و استسلامه للأمر الإلهى ، ـ يؤمر بالتوجه إلى أعظم ملوك عصره ــ و هو الثائر الموتور شديد البطش ، عظيم السلطان فيقال « إذهب إلى فرعون إنه طغى (٣) و يتوجه إلى بلاط جبار يدعى الربوبية فيدعوه إلى الله الواحد القهار ، و يستمر فى دعوته و جهاده و فى وعظه و إرشاده

(١) الشعراء ٦٢ ، (٢) يونس ٨٧ ، (٣) النازعات ١٧

www.abulhasanalinadwi.org

حتى يفتح الله بينه و بين قومه بالحق و هو خير الفاتحين .

لقد كان الايمان والطاعة والدعوة إلى الله القوة التي واجه بها موسى « مشاكل » عصره و قهر بها أعظم إمبراطورية على وجه الأرض ، أرقاها مدنية ، و أوسعها رقعة ، و أغناها أسباباً ، و أعظمها جبروتاً .

لو كان موسى — كزعيم لبني إسرائيل — يفكر تفكير الزعماء السياسيين و يستعرض « الامكانيات » والوسائل التي يملكها قومه ، و يزن كل شئ في ميزان الواقع والحكمة العملية ، و لو نظر — و هو الذي نشأ في البلاط الملكي — إلى العدد والعدة والعزة والمنعة والجنود والبنود والثروة والذخائر التي كان يملكها فرعون ، و قارن في ذلك بين قومه و قوم فرعون ، لما جاز له — في شريعة العقل — أن يواجه فرعون بما يسوءه ، و لتحتم عليه أن يقنع بحظه و حظ قومه ، و يرضى بالوضع السائد ، فلا إيمان و لا صلاح ، و لا عدل و لا أخلاق ، و لا تقوى ، و لا إنسانية .

و لكنه نبي يرشده الوحي ، و لكنه مؤمن يؤمن بقوة الله و يؤمن بنصر الله ، و لكنه داعية يفكر تفكير الدعاة ، و إن هذا المنهج من التفكير والعمل هو الذي غير مجرى التاريخ و أتى بالمعجزات و أدهش العقول ، و حير الألباب .

و لو كان الرسول الأعظم محمد بن عبدالله صلى الله عليه و سلم يفكر تفكير الزعماء و يستعرض الامكانيات والوسائل التي كان يملكها قريش ، و لو أنه نظر إلى الامبراطوريتين العظيمتين اللتين توزعتا العالم المتمدن المعمور ، الامبراطورية الرومية ، والامبراطورية الفارسية ، و ما تتمتعان به من حول و طول ، و قد عرف قوتهما و سعة مملكتهما — و هو الفقيه الواعي — لما جاز له — في شريعة العقل — أن يتوجه بدعوته إلى الانسانية جميعاً ، و يكتب إلى سيدي العالم المعاصر و رئيسي الامبراطوريتين الغربية والشرقية يدعوهما إلى الاسلام ، و لبقي الوضع الذي كان يسود من قرون ، فمتى تملك هذه

www.abulhasanalinadwi.org

الحفنة البشرية التى آمنت به القوة التى تضارع قوة الامبراطوريتين بل تفوقها حتى تهزمها و تدحرها ؟ و إلى متى كان يجب عليه أن ينتظر ؟ و ماذا كان مصير العالم و مصير الانسانية لو اتجه هذا الاتجاه و فكر هذا التفكير ؟ لقد شقيت الانسانية إذن شقاءً طويلا ، و تأخر أو توقف طلوع الصبح الصادق ، و لكان للانسانية تاريخ غير هذا التاريخ .

و لكنه صلى الله عليه و سلم نبى يؤمر فيعمل و يتلق التوجيه والارشاد من السماء فينفذ ، و لكنه مؤمن يؤمن بقوة الله و يؤمن بنصره ، و يؤمن بأن الضعيف مع نصره قوى ، والقوى بخذلانه ضعيف و يؤمن بقوله تعالى « إن ينصركم الله فلا غالب لكم و إن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده و على الله فليتوكل المؤمنون (١) و يؤمن بقوله « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله و الله مع الصابرين (٢) و يؤمن بأن الله قد تكفل بنصر من

---

(١) آل عمران ١٦٠ (٢) البقرة ١٤٩

ينصر دينه و ينهض لاعلاء كلمته فقال « ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم » (١) و قال « و لقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، و إن جندنا لهم الغالبون » (٢) و يؤمن بأن الله قد وعد بالانتصار والغلبة والعلو والسيادة لعباده الذين قد تحققت فيهم صفة الايمان و تجلت فيهم حقيقته فقال « و لا تهنوا و لا تحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » (٣) و لم يعد بشئ من ذلك — من النصر والفتح والظفر والغلبة والعلو والسيادة — على الأهواء والنزعات ، والطموح والكبرياء و حب المجد — الفردى أو القومى — ، و شرف الدماء والأنساب والبلاد ، والعصبيات والقوميات ، لم يتقدم بشئ من ذلك إلى العالم و لم يطلب به النصر مع أنه — صلى الله عليه و سلم — من أشرف الأمم و أفضل البيوتات و أقدس البلاد ، إنما تقدم بدعوة دينية ، منهج خاص للحياة لا غنى للأمم و طوائف البشر عنه

---

(١) سورة محمد ٧ (٢) الصف ١٧٣ (٣) آل عمران ١٣٩

www.abulhasanalinadwi.org

على اختلاف أوطانها و ألوانها و لغاتها ، تخضعت له هذه الأمم و هذه الطوائف من البشر و لم تعقها عن ذلك عصبية أو قومية ، لأنه لم يكن من دعاة عصبية أو جاهلية و إنما كان داعى دين عام للانسانية ، و داعى عقيدة و مبدأ و منهج فاضل للحياة ، و نصره الله على قلة و ضعف و فقر ، و نصر كل من قام بهذه الدعوة الدينية و بهذا المنهج الخاص للحياة و تكفل بنصرهم إلى آخر الدهر فقال « أولئك حزب الله أ لا إن حزب الله هم المفلحون » (١)

إننى لست ممن يدعو إلى رفض الأسباب والتوكل السلبى و لست ممن يعيش فى عالم الخيال والأحلام ، و لست ممن ينكر الحاجة إلى الاستعداد و ممن لم يقرأ قوله تعالى « و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة » و قد لمت العالم الاسلامى و من تزعمه من الشعوب والدول لوماً شديداً فى كتابى « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين »

(١) المجادلة ٢٢

على التقصير فى الاستعداد الحربى والصناعى والتخلف عن أوروبا فى ذلك واعتبرت ذلك سبباً من أسباب شقاء الانسانية واتجاه العالم من الرشاد إلى الضلال ، و من البناء والازدهار إلى الهدم والدمار .

و لكننى أعارض هذا التفكير الذى تسلط على عقلية العالم الاسلامى فى العهد الأخير ، و هو النظر إلى الأمم الاسلامية — فى مختلف أنحاء العالم — ككتل بشرية شأنها شأن القطعان البشرية الأخرى التى لا رسالة لها فى العالم و لا دعوة لها للأمم ، توزن فى ميزان الامكانيات والوسائل والاستعداد المادى ، و تقوم بما تملكه من ثروة و ذخائر ، والتناسى أو الاعراض عن قوتها الكبرى الايمان والطاعة والدعوة إلى الله .

إننا يا قوم فقراء ضعفاء متخلفون فى العلم والصناعة فى الاقتصاد والسياسة ، المسافة بيننا و بين الأمم الأوروبية مسافة قرون و عهود ، فليكن ذلك موضع اهتمام الزعماء والقادة و لينل ذلك كل عناية و رعاية .

www.abulhasanalinadwi.org

و لكننا فى وقت واحد القوة الكبرى فى العالم فعندنا دين هو حاجة البشرية كلها ، و عندنا دعوة تنقذ العالم من نهايته الأليمة التى تنتظره و تدنو إليه ، و عندنا الايمان الذى يخلق الأمانة والشعور بالمسئولية فى النفوس و يخلق الدوافع القوية إلى عمل الخير و خدمة الانسانية و قد حرمتها الأمم الزعيمة للعالم بعد ما ملكت كل الأسباب والوسائل لعمل الخير وخدمة الانسانية ، فأصبحت هذه الوسائل ضائعة بل متجهة إلى القضاء على المدنية والانسانية ، و حاجة أوربا فى اقتباس هذا الايمان منا أشد و أعظم من حاجتنا إلى الاقتباس من صنائعها و علومها ، لأن هذا الايمان هو الأساس و هو الموجه و هو الضابط ؟ و عندنا شريعة تحل جميع المشاكل والأزمات التى يواجهها المجتمع البشرى فى القرن العشرين ، و عندنا — أولا و آخراً — نبى أرسل رحمة للعالمين « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام و يخرجهم من الظلمات إلى النور و يهديهم إلى صراط مستقيم » .

أ لا فلنتجه بهذه الدعوة إلى أوربا الحائرة التائهة باخلاص و نزاهة و توجع و شفقة ، و بقوة و ثقة و إيمان ، و لننظر إلى أنفسنا كدعاة و منقذين ، مبشرين منذرين ، و نستخدم هذه القوة الجبارة فى تغيير مصيرنا و مصير العالم و لنحتل بفضلها مكان الزعامة والقيادة فى ركب الانسانية و مصاف الأمم ، بعد ما عشنا زمناً طويلا فى مؤخر الركب و فى صف التلاميذ والحاشية ، و لنتجه بهذه الدعوة المقدسة المنصورة التى إما تقبل فترفع و تؤمن ، و إما ترفض فتهلك و تقهر ، بهذه الدعوة التى أوجب الله على نفسه نصرها و نصر رجالها .

و لنتجه بهذه الدعوة إلى مجالات مهجورة و كنوز مطمورة فى آسيا و فى أفريقية ، إلى الشعوب التى ملكت الوسائل والعلم والصناعة ، والبلاد الواسعة ، والعقول الخصبة والسواعد القوية ، و جهلت الدين والغايات الصالحة والمبادئ الفاضلة ، و هى مستعدة لقبول هذه الدعوة ، و إذا قبلت هذه الدعوة و فقهتها و أخلصت

www.abulhasanalinadwi.org

لما تغير مجرى التاريخ من جديد كما تغير فى العهد الأول باسلام الفرس والترك والديلم ، و فى العهد الأوسط باسلام التتار والمغول ،

ألا إننا فى حاجة إلى ثورة ، إلى ثورة فى التفكير والمنهج .

www.abulhasanalinadwi.org